تيمة جمال المرأة في الشعر العربي القديم
The theme of charm's women in the ancient poetry

د. زهرة خالص [1] *
جامعة عبد الرحمن ميرة-بجاية-

تاريخ الارسال2024-03-20 تاريخ القبول 2024-05-06 تاريخ النشر 2024-06-01

الملخص باللغة العربية:

كثيرة هي الكتب التي تناولت أخبار النساء قديما وحديثا عرضت لسيرتهن وذكرت سائر ما يتصل بهن من غث وسمين، لكن معظمها اقتصر على جانب دون آخر، عرض لجمالهن ومحاسنهن ومنها ما عرض لصفاتهن وأخلاقهن. نعم لقد شغلت المرأة مساحة شاسعة من الأوراق البيضاء، فكتب عنها بحرارة وتوهج وتدفق وعطاء، وهنا لا بد من طرح بعض الأسئلة، هل احتضنت شعرية المرأة روحا وفكرا وجسداً في القصيدة الجاهلية؟ أم احتضنت الجسد فقط وتغافلت الفكر والروح؟ ولما كان الشاعر الجاهلي يهم بالحضور الأبهى وهو حضور المرأة، حضور الجسد، فما هذا الجسد؟

إن المرأة نعمة كما هي نقمة، وفية، وماكرة منها الحنان وفيها الكيد والدهاء. فالمرأة دخلت إلى المحظور ومدت يدها إلى اللفظ الفحل والقلم المذكر. فهل بيد المرأة أن تجعل من لغة الأخر لغة للأنوثة؟

يدور موضوع مقالنا حول المرأة التي هي من أهم الموضوعات التي تناولتها الدراسات القديمة والحديثة والمعاصرة. وتتجلى هذه الأهمية أن المرأة لم تخلق في العالم إلا لتوحي إلى الرجل بالود وتفتح بعواطفها منافذ روحه، وتجاور بحديثها نفسه الصادقة، وتفضي عليه بالمشاعر النيرة، وتسكب على قلبه وعواطفه روح النشاط والعمل وتبعث في نفسه كل شعور وإحساس.

الكلمات المفتاحية: المرأة، الجسد، الجمال ، الشعر القديم.

Key word: women, body, beauties, ancient poetry,

* المؤلف المرسل **د. زهرة خالص**

الملخص باللغة الإنجليزية:

There are many books that dealt with women's news, in the past and present , showing their conduct and said everything relates to them, bad and good, But mostly confined to one side without the other, Some of them showed their camels and beauties, and other showed their qualities and morals. Yes the women has occupied a large area of white papers, it was written about her warmly with glow and flow and tender ; Here we must ask some questions, did the women's poetry embraced Spirit and thought and body in the poems of the era of ignorance? Or embraced just the body and overlooked the thought and spirit? Whereas the pre-Islamic poet cares to the gorgeous women's presence - the presence of the body - what this body?

The woman is a blessing as a curse, faithful and crafty, source of tenderness and the maliciousness and savvy, the women entered the outlawed and stretched out her hand to the stallion word and the masculine pen, Is it necessary for a woman to make the language of the other language of femininity? Our research is about the women, which is one of the most important topics addressed in the ancient, modern, and contemporary studies. These importance is reflected that the women was created in the world only to refer to the man friendliness and open the ports of his spirit with her tenderness and dialogue with his sincere self and conducive him bright affections, And poured on his heart and his emotions; the spirit of work and activity, and send to himself every sense and feeling.

المقال:

تفنن قديما الشعراء في رسم مفاتن المرأة الجسدية تخيليا، أخذ بعض القراء النقاد باستخلاص معجم لجسدية المرأة من تلك الأشعار. وعبر عنها الإنسان العربي قديما بقوله: كحلاء، عيناء، زجاء، بلجاء، بيضاء، شماء، لمياء، فلجأ ،غيداء، أثيثة الشعر، مضمرة الخصر يعني أن تكون المرأة واسعة العينين مع شدة سوادهما، دقيقة

الحاجبين مع طولهما، وأن يكون هنالك تباعد ما بين الحاجبين، ودقيقة الأنف، دقيقة الأسنان ،سمراء الشفاه واللثاث، طويلة العنق، طويلة الشعر.

لعل السؤال المبهم هنا هو ما الحجة في أن تكون المرأة موضوعا خالدا للكتابة الشعرية؟ وما يجعله دائم التجدد والحضور؟ ويزداد الإشكال تعقيدا وإبهاما لأن المرأة هي الموضوع الوحيد الذي يحفز الشاعر دون سائر المحفزات التي لا تعد، وهي النقطة المركزية التي يحوم حولها الشاعر، وهي المبتدأ والمصير.

أولا–ملامح الجسد الأنثوي:

إن الجسد بوصفه مستودع كل القوى الإنسانية كان هو التجسيد الحي للجمال، فإن ما نطلق عليه صفة معنوية أو جمالاً روحياً أو غير ذلك مما يخيل إلينا أنه غير محسوس هو في الحقيقة متصل بالحس والجسد. فالجمال صورة ومعنى يتحقق من خلال الصورة، ويلتقي نظر الشعراء إلى جمال الجسد عند معنى واحد هو التناسب والتناسق والانسجام. وتبدو المرأة في الشعر الجاهلي بوجه عام بهذه الصفات :

- **مهفهفة بيضاء**: ليست ضخمة.
- **غراء فرعاء**: بيضاء، كثيرة الشعر.
- **برهرهة**: ممتلئة.
- **غزيرة رودة**: ناعمة.
- **رخصة**: لينة.
- **طفلة لعوب**: رقيقة.
- **هركولة فنق**: منعمة مترفة.
- **مبتلة هيفاء**:غامرة البطن.
- **عبهرة الخلق**: ناصعة البياض، طويلة عظيمة في نفسها.
- **رعبوبة جماء العظام**: ممتلئة الجسم.
- **حسناء براقة**: المرأة الشابة.
- **حوراء جيداء يستضاء بها**: واسعة العينين شديد سوادهما.
- **بضة** : ناعمة الجسم.

- **غير مفاضة**: ليست مسترخية البطن.
- **ليست بسوداء ولا عنفص**: ليست بذيئة قليلة الحياء.
- **ولا عابس ولا مهزاق**: غير متجهمة ولا كثيرة الضحك.
- **ولا جهمة ولا علفوف**: ليست غليظة.

وهي تشبه الشمس يوم طلوعها، تضيء الظلام كأنها منارة، هي مثل المهاة أو درةٌ يتيمة من لؤلؤ ، مهاة حرة، نخلة من نخل بيسان[i].

ثانيا–أعضاء جسد المرأة الجاهلية:

تفننوا وأحسنوا تصويرها، وأبدعوا في دقائق سمات جمالها في كل من:

- **الوجه:**

فهو كالصحيفة لا ظمآن مختلج، ولا جهم، وهي واضحة الجبين، وجهها أبلج مشرق الخدين. فخم مثل قرن الشمس، يبدو دينارا نقدياً، نقى اللون صاف، يضئ الفراش كمصباح وهي واضحة الخدين يبدو خدها أسيلاً.

- **الفم، الأسنان، الريق:**

إن جمال الفم بالنسبة للمرأة أمراً يزيد ثقتها بنفسها حيث أن العرب في الجاهلية وصفوه بأجمل الصفات بكل ما فيها من أسنان وريق وشفاه، حيث اشترطوا أن يكون فم المرأة: فم بارد عذب مقبلة، شهي المورد، يشفي بريقها العطش الصدى بذي غروب واضح كأن رضابه وهناً مدام، كأن ريقها بعد الكرى اغتبقت من طيب الراح فهي بيضاء العوارض طفلة ،تبسم عن أَلْمىَ (الذي يميل لون شفته إلى السواد) عن عذاب اللثات (الفم) كأنه أقحى الربى، وعن مها (البلور) شبم عزى (بارد) مصقول عوارضها (ما يبد ومن الأسنان عند التبسم)،غراء الثنايا، تفتر (تتبسم) عن ذي غروب خصر (بارد) وإذا ذقت فاها قلت طعم مدامه[ii].

إن العديد الشعراء أكثر والحديث عن الفم، لأنه ينبوع المتعة ولا شك أن من جمال المرأة طيب فمها، وقد أفتن الشعراء في وصف حلاوة الريق وتشبيهه بالخمر والعسل، وشبهها "عبيد بن الأبرس" بالخمر المختومة بالمسك .وجعل امرئ القيس ريقها مشوبا بالخمر والماء الصافي وريح الخزامى والشهد، في قوله:

كأنّ المُدَامَ وصَوْبَ الغمام وريح الخزامي وذَوْبَ العسل[iii].

وإذا ذكر الفم فإنه يرتبط مباشرة بالقبلة ،والقبلة كأي عمل من أعمال الإنسان ذات تأثير معزى متنوع فلكل مكان في الجسد نوع من التقبيل. فقبلة الفم أو الخد، قبلة العنق أو العين قبلة الرأس، قبلة اليد أو الأنامل، وهناك قبلة الإشارة، قبلة الصمت، قبلة الوهم[iv].

إذاً فالقبلة جواز سفر من الله إلى قلوب، وللقلوب رحلة على زورق الجمال إلى فردوس الحياة لصنع نسل جديد لها، لترضى الله عن الأحياء. فالقبلة هي الرسول الروحي لعاطفة الحب[v].

– العينين:

العين في الجاهلية حسية متشاوفة أو منداحة على ريش رئي، تقتعد مكانها بين أخواتها ولكنها تمتاز في شعر الجاهلية كما سواه، بأنها التعرف والتعريف والحب. والعينين الجميلتين عليهما: أن ترنوا بنظارة من وحش وجرة مطفل (أم طفل)، ومقلة شادن (من أولاد الظباء الذي قوى على المشي) ، و من النساء اللواتي عيونهن عيون عين (عيون البقر الوحشي) ولها طرف ساج (الساجي الساكن أكحل العينين ما فيه قمع وسجوين (عينين ساكنتين فاترتين) برجاوين (واسعتين رئم) في حسن حاجب، ومقلتا رئم ولولم تكحل.

وشبهوا العين بأجمل عين يرونها وهي عين المهاة وعين الغزال.

قال امرؤ القيس متغزلا:

تصدي وتبدي عن اسيل وتنقي بنظارة من وحش وجرة مطفل [vi].

– الشـعر:

إن الشعر يبدو وجثالاً (شعر جثل غزير لين) على المتنين ذا خصل يحبومسكا وتطياباً، فرع أسود فاحم كقنو النخلة، رَجْل (ليس بالسبط المترسل ولا الجعد الملتوى) كالكرم مال على الدغام[vii].

–الجيد (العنق):

الجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ولا بمعطل (المعطل الذي لا حلي فيه)، جيد مغزلة (ظبية ذات غزال صغير) أدماء (بيضاء) خاذلة (مختلفة عن القطيع)، فهي جيداء، نياف القرط (طويلة القرط)

قال امرؤ القيس :

وجيدٍ كجيد الرئْم ليْس بفاحش إذا هيَ نَصَته ولا معطّل [viii].

–البطن والخصر:

فإن لها كبدا (وسط) ملساء ذات أسرة (خطوط)والبطن ذو عكن لطيف (أي خميصة البطن ضامرة الخصر)طية وهي هضيم الكشح ضامر، من نساء كأن بطونهن سيوف هند. يجول وشاحاها على أخمصيهما فهي خمصانة (أي ضامرة البطن)، هضيم الحشا، صفر الوشاح (دقيقة الخصر)، يكاد الخصر ينخزل وهي من نسوة دقاق الخصور .

– الأقدام والسيقان والأرداف:

فإن لها قدم ريا سباط بنانها (طرية)، وساقان مار (ترجرج) اللحم مورا عليها إلى منتهى خلخالها، ولها روادف تثنى الرداء مثل دعص الرمل (كثيب الرمل) المنهبل، فهي ريا الروادف، ريا المخلخل (ممتلئة عند موضع الخلخال)، لها ساريتا بلنط (اسطونتان من العاج) أو رخام، وساق كالأنبوب السقي المذلل فهي ليست من الزل أوراكا (خفيفة الوركين)[ix] .

–الذراعان والمعصمان والكفان والأطراف:

فإن لها ذراعي عيطل (ظبية طويلة العنق) أدماء (بيضاء) بكر ومعاصم ممكورة (مصبوغة بالحمرة) تزين أناملهن اللطاف، تعط وبرخص غير شسن (غير خشن) كأنه أساريع ظبي، أو مساويك اسحل (مساويك من نبات الإسحل) وبخضب رخص البنان كأنه عن (نبات له ثمر أحمر صغير) وكف في سوار يزينها بنان الدمقس (الحرير) المفتل ومعاصم فخمة رخصة الأطراف ريا المعصم.

المشي، القوام، الحركة:

تمشي كمشي الزهراء في دمث الرمل (البقرة الوحشية البيضاء) تمشي الهويني (تمشي متمهلة) كما يمشي الوحى الوحل، بقوامها الذي جمع المدادة والجهارة، تهادى كما قد رأيت البهيرا (الذي انقطعت أنفاسه) هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة يتكئ قصر منها ولا طول، وإذا قامت تداعى قاصف، تمشي كمشي النزيف إذا أدبرت خلتها دعصة وتقبل كالظبي، يكاد يصرعها إذ تقوم ... إذا قامت رويداً تكاد تتغرف (تسقط) تهتز كالغصن المتأود (ليست بوثابة في قيامها) إذ تقعد نقا من عالج (تبدو عند قيامها ضخمة الأرداف كأنها رمل من رمال عالج) وإذا قامت نيافاً كالشطن (طويلة كالحبل)، إذا انبطحت جافي عن الأرض جنبيها وخوى بها راب كهامة جنبل (تبدو أردافها ضخمة كرأس القدح الخشبي) فهي فتور القيام، عسيب القيام (ممدودة القوام كجذع النخلة) كثيب القعود (إذا قعدت بدت مثل كثيب الرمل)[x] .

إن أعضاء الجسد هي مصدر جمال المرأة فهي التي تثير الشاعر العربي وتجعله فاقدا لصوابه فيزداد تعليقاً بحبيبته، فهو يسعى إبداعيا للوصول إلى محبوبته المتخيلة.

ثالثا– المرأة المثالية:

لقد حاول كل شاعر أن يجعل من محبوبته أجمل النساء، فحشد لها كل عناصر الجمال التي تعارف عليها الشعراء متأثرين برؤية عصرهم وتراثهم الشعري والثقافي ويقول صلاح عبد الصبور: «إن ما حدث هو أن الشاعر قد عامل المرأة شعريا كما عامل جواده وناقته فوصف المثال لا الواقع، فالشاعر لا يصف مرأة بعينها ولكنه يصف

مثال المرأة، هذا المثال الذي خطه الشعراء الأوائل، وهنا قام الشعر العربي بالدور الذي قام به النحت عند اليونان القدماء في بناء قصور النماذج الصحيحة الوافرة القوة والجمال»[xi] .

وقد وفر الشعراء لنموذج المرأة المثالية في شعرهم عناصر أساسية منها:

– **عنصر اللون:** فهي ذات وجه أبيض، وشفاه تضرب فيها السمرة، وأسنان بيضاء، وعيون سوداء، وشعر أسود.

– **عنصر الرائحة:** فهي معطار طيبة النثر يبيت المسك فوق فراشها زكية الفم بل إنها طيبة الرائحة وإن لم تطيب.

– **عنصر الحركة:** فهي ثقال تبد ومتهالكة حين تقف.

– **عنصر اللمس:** فهي بضة الملمس، ناعمة لينة.

– **عنصر الحرارة:** فهي تبرد في الصيف، وتدفئ في الشتاء.

هذا إلى جانب سحرها وتأثيرها فهي صائدة، وهي تصبي الحليم وتسلب اللب والذي يلفت النظر أن الشعراء قد استمدوا أوصافهم للمرأة المثالية من الطبيعة، فهي في طولها وحركتها كغصن البان والنخلة، وهي بياض جسمها كبيضة وكالشمس، أما أسنانها فكشوك السيال وعيونها كعيون المها، وريقها كالخمر والعسل ورائحة فمها كريا القرنفل ورائحتها كالروضة العطرة، تمر كمر السحاب، تبدو كالتمثال وكالكثيب والمهرة والغزالة[xii].

إن الشاعر قدم المثال الحسن للمرأة وقدم في نفس الوقت رؤية فنية لها وهي رؤية تتصل بواقع المرأة من ناحية وبما يجب أن تكون عليه من وجهة نظر عصره.

فالصورة التي قدمها الشاعر الجاهلي للمرأة ذات بعدين: الأول يتصل بطبيعتها والأخر يتصل بوظيفتها فالشاعر يحقق لمحبوبته كل عناصر الجمال وينفي عنها كل صفات القبح ...إنه كالرسام الذي يجتهد في إبداع الصورة أو التمثال[xiii].

والإشكالية التي نطرحها هي: هل استطاع الشعراء الجاهليون تقديم نموذج متفرد للمرأة بإمكاننا أن نطلق عليه اسم نموذج المرأة العربية ؟ وهل استطاع هذا النموذج أن يتغلغل في وعي الجماعة ويسيطر على تصور الشعراء للمرأة ؟وإذا حدث ذلك، فهل السبب راجع إلى كون النموذج له من القوة والنفاذ والشمول بحيث يبقى مسيطرا على وعي الجماعة وتصور الشعراء ؟ وما مصدر هذه القوة والنفاذ والتأثير ؟ هل لأن النموذج التقى مع الصورة المثلى للمرأة ؟ بحيث تظل الصورة لها من الخصائص والأبعاد ما يحقق لها فاعليتها ؟

يقول صلاح عبد الصبور في هذا المضمار: «يذكرني مثال المرأة العربية الجميلة، كما نراه في شعرنا القديم بلوحات الفنان روبترا حين يتوقد اللحم البشرى فخوراً ببياضه، معتزاً بامتلائه ونضارته فالمرأة الجميلة عند شاعرنا

القديم هي المرأة البيضاء التي استرخى شعرها الأسود حول مشرقها الناصع، وأشرب جيدها الأتلع، ونهد ثديها النافر، ودق خصرها، ثم جلت عجيزتها جلالاً واستدارت ساقها فما استطاع الخلخال إلا الصمت »[xiv].

هذه هي منحوتة صورة " فينوس" العربية شعريا راسخة في التراث الشعري العربي حتى القرن الخامس الهجري، فكأن كل الشعراء كانت معوقاتهم من هذا الضرب من النساء[xv].

كانت صورة المرأة الممتلئة الجسم، التي تميل إلى البدانة، من الصورة المهمة في نظر الإنسان القديم، كما أسلفنا لتحقيق الشروط المثالية التي تؤهلها لوظيفة الأمومة[xvi]والخصوبة الجنسية، ولقد ظلت هذه النظرية عالقة بتقديم الرجل للمرأة زمنا طويلا، وليست القضية في أساسها قضية ذوق جمالي سائد في عصر من العصور. وإنما هي قضية مترسبة عن معتقد ديني موغل في بدائيته، فمن كمال صورة المثال المعبود أن يكون متصفا بالصفات التي تؤهله لأداء وظيفته التعبد من أجلها، وليس هذا الأمر الذي ساد عند العرب وحدهم في هذه المرحلة الحضارية، وفي هذه الصورة نجد امرئ القيس يركز على صورة الحركة الموحية بمعنى الإمتلاء والبدانة فيقول:

وإذْ هي تَمشي كَمشي النّزيف يَصْرَعُهُ بالكثيب البَهَرْ[xvii].

وارتباط صورة المرأة الجسدية بالدمى والتماثيل ،ارتباط واضح في الشعر العربي القديم...وإذا كانت هذه (الدمية) الدمى التماثيل تقدم في معابد الشمس الأم وهي إما على هيئة امرأة أو على شكل حصان، والمعنى اللغوي دمية مزال يحمل آثاراً دينية، فهي تعني الصورة المنقوشة من الرخام، وتعني الصورة المنقوشة التي يظهر فيها اللون الأحمر[xviii]. ويقول امرئ القيس:

كَأن دُمى سُقف على ظهر مَرْمر كسا مزيدَ السّاجوم وشْياً مُصوراً[xix].

والصورة في هذه النماذج دينية محضة، ففي شعر امرئ القيس هي تمثال للشمس بالذات " يضيء الفراش وجهها "ثم هي دمية سقف، مصنوع من مرمر، على العادة في بناء بيوت العبادة.

والتمثال والدمية يزينها جوهر أحمر فهو كالجمر في الصورة الأولى وهو الياقوت والشذر في الثانية والصورة الثانية لا مرئ القيس تتداخل تداخلا شديداً مع صورة أخرى للمرأة، ترتبط أيضاً بالدين القديم.

فالمرأة كانت بمثابة الواحة في قلب الصحراء المقفرة، وهي واحة تمثل فردوس الجاهلي في حياته حيث لا يؤمن بفردوس بعد الموت [xx].

ثالثاً – المرأة الواقعية:

إن ما استعرضناه من نماذج شعرية لشعر امرئ القيس والطابع الطاغي على هذا الشعر والمتسم بالمجون في أكثره، ومع ذلك فليس كل تصوير–امرئ القيس – للمرأة مقصورا على ما سميناه (المرأة المثالية) بل هناك إلى

جانبها صورة أخرى نلمسها في شعره وهي ما نسميها (المرأة الواقعية) وهذه الأخيرة إما قينية (مغنية) أوهي امرأة مهجوة من نساء العدو، أوهي الزوجة المنكدة التي تكون عكس الحبيبة أي سيئة الأخلاق، وكذلك المرأة الشيخة التي تشيخ ويشيخ كل شيء فيها فتصبح مكروهة لأي شيء حتى للمعاشرة.

قال امرؤ القيس وهو يذكر الطواف ورقص العذارى حول الصنم :

فَغَنَ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عذَارى دوار في مُلاءِ مُذيّل [xxi]

وقال في ذكر الكران(آلة موسيقية):

وإنْ أُمْسِ مَكْروباً فيَارُبَّ مُنَعّمة أعْمَـلْتُها بِكران[xxii]

وقال في المزهر (وهي آلة موسيقية أيضا):

لَهَا مُزْهَرِ يَعْلُو الخمسَ بصَوته أَحَبش إذا ما حَرّكتـه اليَدان[xxiii]

إن امرئ القيس قد نظم أشعار كثيرة صور من خلالها حياة القينية بصفة عامة وملبسها وحركتها بصفة خاصة ومن ذلك قوله:

أُغادي الصَّبُوحُ عندَ هِرِ وفْرتني وليداً وهَلَ أَفْنى شبابي غيرُ هرْ[xxiv]

وأول ما يبدو لنا من أمر هؤلاء القيان أنهن منعمات متأنقات، يعتنين بشؤون ملبسهن وحليهن، وطيبتهن عناية غير مستغربة فيهن، بل ربما كانت عناية لازمة لاكتمال الجو الفني ،وانسجام العناصر الثلاثة: جمال الصوت، وعذوبة اللحن، وفتنة الجسد. بإضافة إلى صباحة الوجه، وأناقة الملبس، والزينة، هذه العناصر كلها قد توفرت في المرأتين اللتين ذكرهما الشاعر في الأبيات السابقة، وغالب الظن أنهما كانتا تسقيان الخمر في إحدى الحانات، وامرؤ القيس كان يغادي الصبوح عندهما منذ صباه، أو لعلهما كانتا من قينات تلك الدور العامة التي كان يرتادها ، ومعرفة امرئ القيس بهذه الطبقة العابثة من النساء تبدو من قوله :

وأثَر بِالمِلْحاةِ آلَ مُجَاشِـع رِقَابَ إِمَاءٍ يَقْتنينَ المَغـارما[xxv]

أما لذة الجد فهي الكد في الحرب فيقول:

كَأَنّي لَمْ أَرْكَبْ جوَاداً للذة ولم أَتبَطّن كاعباً ذَاتَ خُلْـخَال [xxvi]

والملاحظ على صورة المرأة في النماذج الشعرية أنها قد تضم عنصراً من عناصر صورة المرأة التي تعرضنا لها بصفاتها ومميزاتها سابقاً. فهي بيضة ممتلئة الجسم، لكن هذه تنقطع عن ارتباطها الديني القديم فلا تكون الغزال أما، ولا

تكون البدينة شمسا، فهي هنا جسد تتداوله الأيدي لذلك لم يحشد لها الرموز المقدسة كما كانت تحشد للمرأة المثالية فتخرجها من عالم الواقع.

ومما سبق ذكره نستطيع أن نقول أن امرئ القيس من الشعراء المولعين بالأنثى، الذين تستبد بهم الصبوة، فيصور المرأة تصويراً جنسيا مبينا محاسن جسمها من وجه وعيون وساق وأرداف وأعجاز، عامد إلى ما يثير العاطفة، فقال في وصف ثغر حبيبته:

بثَغْر كمثل الأقحوان مُنَوّر نَقِيّ الثّنايا أشنبَ غير أثْعل [xxvii]

وقال أيضا في وصف حبيبته وصفا حسيا :

فتلكَ التي هامَ الفؤاد بحبِّـها مهفْهفةٌ بيضاءَ دريّةُ القُبَـلْ[xxviii]

إن محبوبة الشاعر تتفرغ للعناية بنفسها، والاهتمام بجمالها، لأنها لا تنصرف إلى السعي والدأب، فهي دقيقة الخصر، خفيفة اللحم غير ضخمة ولا مسترخية، صدرها في صفائه وتألقه يتلألأ كتلألؤ المرآة، وهي بيضاء يشوب بياضها صفرة كالصفرة التي تشوب بيض النعام أي هي كالذرة في الصفاء في لونها .

أما شعرها فهو طويل يتدلى على متنها الأسود الفاحم كثيف كقنوة النخلة، ترتفع غدائره إلى الأعلى، ونظرا لهذا الجمال الذي تميزبه شعر حبيبته فله عدة أشعار يصف فيها شعرها فيقول:

وفَرْع يزين المتن أسْوَد فاحم أثيث كقنو النخْلة المتعثكل[xxix]

وكذلك نجده يصف خصرها فهو في لينه وتعطفه شبيه بالخطام المجدول .

وفي هذا الصدد يقول :

وكشْح لطيف كالجديل مُخصّر وساق كأنبوب السّقيِّ المذلل [xxx]

وكما أن ساقها شبيه في صفاء لونه بأنبوب القصب المروي اللين، أما رائحتها فتعبق بالمسك والطيب لأنها تتطيب فيفوح المسك من سريرها ويعلق بكل ملابسها فيقول:

إذا التَفَتَتْ نحوي تَضَوعَ ريحها نسيمَ الصِّبا جاءت بريآ القرنفل [xxxi]

وهي تنام إلى الضحى، كأنها الأميرة لأن هناك من يؤدي العمل عنها من الجواري والخدم.

وحين تتناول الأشياء تتناولها بأنامل لطيفة، لينة ناعمة تشبه المسواك أو تشبه لك ذلك النوع من الدود الذي يكون في الأمكنة الندية وفي الرمل وفي الحشيش فيقول:

وتعطو برخص غير شننن كأنه أساريعُ ظبي أو مساويك أسحل [xxxii]

أما وجهها فيتألق جمالا في الدجى كأنه مصباح راهب يهتدي به الظلام، وإلي مثل هذه المرأة ينبغي أن ينظر العاقل ويتشوق إليها، إنها مديدة القامة في لباسها الذي يدل علي أنها شابة، ليست بصغيرة ولا كبيرة . فقال:

تُضِيءُ الظّلاَم بالعَشَاءِ كأنّها مَنَارةُ مَمْسِي رَاهبْ متبتِّل [xxxiii]

هذه هي أوصاف الشاعر لحبيبته التي تغزل بها، ووصفها ماديا وسعيا منه وراء اللذة، هذه المتعة العابرة التي يمكن اعتبارها من أدوات الله والسلبية، حيث سعي الشاعر إلى إرواء الضمأ عن طريق اللذة، وهو في تناولها بهذا الشكل، وفي تصويرها مجزأة عضوا كأنما يصف أية امرأة، أية مخلوقة، جميلة، تجسدت في هذا الوصف معاني الترف والنعمة، تجذب الإنسان وتبث فيه سحرا هادئا، وهي صورة كان يؤثرها العربي عصرئذ من خلال التشبيهات والأوصاف المجسدة فيها بما يوافق المثل الأعلى للجمال كما تمثله الذوق العام للجمال أنذاك، والشاعر كغيره قد ارتسمت في ذاكرته تلك الأوصاف المفروضة عليه من الخارج، المشتركة بين جميع الناس.

أي أن الصفات التي أوجدها العقل الجمعي أوالتي اتفق عليها المجتمع وأقرها فجاء الشاعر ليعبر بصورة أو بأخرى عن شعوره نحو المرأة المثالية فكان أسير صورة هذا التقييد الاجتماعي الذي أعطى لحياته التي يعيشها قيما حضارية في الإقبال على الحياة ومتعتها في فهم شديد.

ويعلن امرئ القيس أنه ودع الصبا وريعان الشباب غير حصال أربع هو حريص عليها بل شديد الحرص هي : شرب الخمر، ركوب الخيل، وشن الغارات، والرحلة إلى الصحراء المخيفة للوصول إلى حبيبته أو إلى صاحبته يقول في ذلك:

وَأَصْبَحَتْ ودّعْتُ الصِّبَا غير أنّني أراقبُ خَلاّت مِنَ العَيْشِ أَرْبَعًـا

فَمنهُنّ قَولي للنّدَامَى تَرفَقُوا يُداجُونَ نشاجا من الخمرُ مـترعاً[xxxiv]

ومما سبق نلاحظ أن امرئ القيس شاعر وجداني، يعبر عن شخصيته بكل أبعادها، في شعره، فهولا يأبه أن يطالع الناس أحواله، وأسراره حين يقضي أحاديث لهوه ... كأنها خط تمثال. قال يصف حديثا دار بينه وبين امرأة:

وقلْتُ لها أيِّ القبائل تُنسبي لعلِّي بين النّاس في الشعر كي أُسلْ

فقالت أناَ كِنْديّةٌ عَربيّةٌ فقلتُ لها حشا وكلاّ وهلْ وبل [xxxv]

وقال في موضع آخر:

وقد كان لُعبْبي كلَّ دسْت بقبلة أقبَّل ثغْراً كالهلال إذا أَهل

فقبَّلتهَا تَسْعًا وتَسْعينَ قُبـْلَةً وواحدةً أيضاً وكنتُ على عجلْ [xxxvi]

فهنا امرئ القيس يحصي عدد القبل التي نالها من حبيبته وهي تسعة وتسعين إضافة إلى واحـدة كان على عجل.

وقال أيضا:

وَعَانَقْتُهَا حَتَى تَقَطَعَ عِقْدُهَا وحتّى لآلئ العقد من جيدها انفصل[xxxvii]

الخاتمة:

ويبدو جمال المرأة في الشعر الجاهلي غاية ووسيلة في آن واحد ونلاحظ في هذا الجانب أن العناصر الحسية الجمالية للمرأة كانت أكثر ما تكون حضوراً في القصيدة الجاهلية، وإن امرئ القيس كان رائدا في هذا فإنه ينبؤك عن جمال الخدود الأسيلة الناعمة ليغريك بتحضير حواس اللمس، ثم ينبهك إلى التناسق في العنق والخصر العظيم، قبل أن يريك بياض الجسد، وسواد الشعر ثم لا يلبث إن ينتقل بك سريعاً إلى عالم الروائح والمذاقات بنسيم الصبا وريا القرنفل وهذا هوالشعر الجسدي الخالص كأصدق ما يكون.

ويبقى نموذج المرأة العربية في الشعر الجاهلي هي المرأة ذات الجمال المتوقد كما صورها الشاعر الجاهلي، شمس تشرق ومصباحاً يضيء، وخمراً تسكر، تحيي وتقتل، تسحر وتصبي الحليم لأنه استكمل لها الحسنى فلا شيء فوقها وستبقى المرأة الجاهلية في الشعر جميلة ساحرة كالظبي والغزال المطفل، والغصن المتأود، فهي جماع لكل جميل في هذا الكون.

الهوامش:

[i]– ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في شعر الجاهلي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، 1997،ص21.

[ii] – المرجع نفسه، ص22.

[iii] – مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د(ط–ت)،ص 151.

[iv] – ينظر: أحمد محمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، دارالعلم، بيروت،ص 51.

[v] – ينظر:علي شلق، القبلة في الشعر العربي، دار الأندلس للطباعة، ص9، ص10.

[vi] – مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، ص115.

[vii] – ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، ص 22.

[viii] – مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، ص 125.

[ix] – ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشعر الجاهلي،ص 23.

[x] – المرجع نفسه، ص24.

[xi] – صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة في شعرنا القديم، دار الكتب، ص118، ص119

[xii] – ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، ص 16.

[xiii] – المرجع نفسه، ص43.

[xiv] – صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة في شعرنا القديم، دار الكتب، ص: 113.

[xv] – المرجع نفسه، ص :118.

[xvi] – علي البطل، الصورة الفنية في الشعر العربي دار الأندلس، ط3، 1983، ص 58.

[xvii] – مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، ص: 69.

[xviii] – ينظر: علي البطل، الصورة الفنية في الشعر العربي، ص64.

[xix] _ مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، ص 123.

[xx] – ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، ص45 .

[xxi] – مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، ص 120.

[xxii] – المصدر نفسه، ص 165.

[xxiii] – المصدر نفسه، ص166.

[xxiv] – المصدر نفسه،ص07.

[xxv] – المصدر نفسه، ص160.

[xxvi] – المصدر نفسه، ص166.

[xxvii] –المصدر نفسه، ص127.

[xxviii] –المصدر نفسه، ص113.

[xxix] – المصدر نفسه، ص132.

[xxx] –المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[xxxi] – المصدر نفسه، ص147.

[xxxii] – المصدر نفسه، ص115.

[xxxiii] –المصدر نفسه، ص116.

[xxxiv] –المصدر نفسه، ص115.

[xxxv] –المصدر نفسه، ص116.

[xxxvi] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[xxxvii] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المصادر والمراجع:

- مصطفى عبد الشافي، ديوان امرئ القيس، دار الكتب العلمية، د(ط–ت)، بيروت، لبنان.
- حسني عبد الجليل يوسف، عالم المرأة في شعر الجاهلي، دار الثقافة للنشر، ط1،القاهرة، 1997.
- أحمد محمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، دارالعلم، بيروت.
- علي شلق، القبلة في الشعر العربي، دار الأندلس للطباعة.
- صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة في شعرنا القديم، دار الكتب.
- علي البطل، الصورة الفنية في الشعر العربي دار الأندلس، ط3.